

عكس الآخرين، يرى انه، فيما يتعلق بالسلطة، فإن الفلاح كان دائماً متحفزاً للتغيير، غير ان الفلاح في ثورته، كما يقول العقاد، يريد ان يرى الصفوف حوله ولا يجب ان يخاطر وحده<sup>(٩)</sup>.

ويمكن، انطلاقاً من هذه الملاحظة الهامة التي اوردها العقاد، ان ترجع فترات الاستقرار الطويلة نسبياً التي نلحظها في التاريخ المصري، رغم العسف والاضطهاد، الى جماعية العقل المصري، لا إلى نوع من الخضوع والميل للاستسلام. وبالمثل فإن عمق الثورة، حينما تقوم، واتساعها وشمولها، يمكن رده الى السبب نفسه، اي الى جماعية العقل المصري التي هي الناتج الطبيعي لنمط الحياة المصرية عبر التاريخ؛ فالمصري لم يكن يستطيع أبداً ان يعيش حياة فردية. القرية هي دائماً عالمه؛ حيث يعمل عملاً جماعياً، ويعيش حياة جماعية، واعمال الري والسيطرة على الفيضان، وحماية الرقعة الزراعية من غارات البدو كلها مهام لم يكن من الممكن انجازها الا بعمل جماعي.

هذه الجماعية في العقل المصري هي وحدها التي كان من الممكن؛ حيث لا تكون الثورة ممكنة، ان تواجه القهر بالتحمل، ولكن هذا التحمل للقهر مشروط، كما يقول جاك بيرك، بأن يكون القهر ذاته عاجزاً عن ان يغير من طبيعة الكائن الذي يتحملة<sup>(١٠)</sup>. اي انه، عندما يصل القهر الى الدرجة التي يهدد فيها طبيعة الإنسان المصري وتكوينه، فإنه لا مجال عندئذٍ للتحمل. هذه الجماعية الصلدة التي تولد تلك القدرة على التحمل قال عنها جاك بيرك انها تزداد قوة وثراء، وتجدداً من خلال العمل المتواصل الذي يؤديه الفلاحون والذي يجدد علاقة الشخصية المصرية بالطبيعة، كما تستمد قوتها وثراءها من تركة ماض هائل تتسلمها الأجيال الجيل بعد الجيل<sup>(١١)</sup>. كذلك تفسر هذه الذهنية الجماعية تلك الخاصية الفريدة الي رصدها جاك بيرك في الشخصية المصرية ويراهنا أيضاً مصدرراً للقوة والثراء، أي قدرة الشخصية المصرية «على ان تجمع، في لحظة واحدة يحسبها المرء نهاية، بينما هي ليست سوى بداية جديدة، فرعونيتها، ومتوسطيتها، وشرقيتها، ولأنها كل ذلك في وقت واحد فإنها تستطيع ان تستمد من هذه الشخصية المركبة الثقة بالنفس والقدرة على اعادة اكتشاف ذاتها»<sup>(١٢)</sup>.

«هذا هو ما جعل مصر لا تضيع ابداً رغم انها كانت تخسر كثيراً»<sup>(١٣)</sup> ولا يعادل فترات «التحمل»، في كثرتها، الا فترات الثورات التي قامت بها مصر: فالفترة الممتدة من الأسرة السادسة (٢٤٢٠ ق.م.) إلى الأسرة الثانية عشرة (١٧٩٠ ق.م.)، أي حوالي ستمئة سنة، هي فترة ثورات مستمرة قام بها الفلاحون المصريون ولعب فيها امراء الأقاليم دوراً لصالحهم الخاص محاولين الانتقاص من السلطة المركزية لحساب سلطاتهم المحلية، وفي بعض الأحيان لمحاولة الاستقلال عن الدولة المركزية. ومن العدل ان نصف حرب احمس ضد الهكسوس في الأسرة السابعة عشرة (حوالي ١٥٠٠ ق.م.) بانها كانت حرب تحرير وطنية، وكذلك حرب بساماتيك لتحرير مصر من الآشوريين (حوالي ٦٦٢ ق.م.).

وطوال حكم البطالمة الاغريقيين لمصر، والذي استمر حوالي ثلاثمئة سنة (٢٢٢ - ٣٠ ق.م.)، كانت هناك، على الأقل، ثلاث ثورات تحريرية بقيادة امراء طيبة.